اللطيف

الاسم هو اللطيف ، وقبل أن نبدأ بتعريف هذا الاسم لابد من مقدمة قصيرة : فعندما يعرض الإنسان لمعالجة بحث يجب أن يعود إلى الأهداف الكبرى ، يحددها أولاً كأن يشير إلى الهدف العام من بحثه ، وإلى الهدف الخاص ، لأنَّ الباحث أحياناً تَزِلُّ قدمه وينحرف عن الهدف الكبير ، وتشغله فروع البحث فتستأثر باهتمامه وينسى الغاية الأهم في معالجته للبحث المعني به ، وقد تضيع الفكرة الرئيسية على القارىء ، ونحن هنا مع أحد أسماء الله الحسنى ، فالبحث مُهّم والغاية سامية ، وحذرنا من الانسياق وراء الفروع قائم إن شاء الله .

إن شرف العلم من شرف المعلوم ، وهذه الحقيقة أكررها كثيراً في كتابي ، فإذا درست موضوعاً حقيراً أو تافهاً أو سخيفاً ، فهذه الدراسة ، وتلك التمحيصات والتحقيقات والمتابعات بجملتها سخيفة لماذا ؟ لأنَّ الموضوع تافه ، وكلما شرُفَ الموضوع شرُفَ العِلم .

والسؤال المُلح دائماً : هل يُوازَن خالق مع مخلوق ؟ أو قديم مع حادث ؟ أو كامل كمالاً مطلقاً مع ناقص ؟ لا ، وحينما يتعرف المرء إلى أسماء الله الحسنى يتعرف إلى خالق الكون ، وقد يَسأل سائل :

وما علاقتي بأسماء الله الحسنى ؟ فأقول : أصل الدين معرفته .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فأنت أيها الإنسان خليفة في الأرض ، ولن تُحققَ هذه الخِلافة إلاّ إذا اصطبغت بصبغة الله عز وجل ، فإذا عرفنا جانباً من أسماء الله الحسنى فينبغي أن نتساءل : ما حظ المؤمن مِن معرفة هذا الاسم ؟ وما حظه من معرفة اسم العزيز ؟ أقول : حظه أن يكون عزيزاً ، وابتغوا يا عباد الله العزة عند الله .

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ** » قَالُوا : وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ : « **يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ** » . [أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد] .

« **ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير** » .

وإننا في الصفحات التالية نطوف حول اسم اللطيف ، والحقيقة التي أتمنى على كل إنسان أن تكون واضحةً في ذهنه ؛ هي أن هذا الكون كله في أصل خلقه خُلِقَ وسُخر للإنسان تسخيرين : تسخير تعريف وتسخير تكريم ، فالمرء قد يشرب الكأس من الماء ، فيروي العروق ويَذْهب الظمأ ، ولكن هذا الماء خُلق لهدف أكبر من أن تشربه ، خُلق لكي تعرف الله من خلاله ، فمَن جعل الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ؟ ومَن جعله ذا خاصية عالية في النفوذ ؟ ومَن جعله يتبخر في درجة منخفضة جداً ؟ ومَن جعله يحل المواد الكثيرة ؟ ومَن جعله قِوام الخلية الحية ؟ إلخ . . . ؟

فإذا عرفت ـ أيها الإنسان ـ الله من خلال الماء فقد حققت الهدف

الكبير من خَلْقِ الماء أما إذا شربت كأس الماء وارتويت به ، ثم أغلقت دون عقلك الأبواب فقد حققت الهدف الصغير ؛ فالهدف الكبير أن تعرف الله من خلال الماء والهواء والطعام ، وأن تعرفه من خلال نفسك التي بين جنبيك ، وأن تعرفه من خلال ابنك ، ومن خلال كل شيء حولك ، هذا كله بينه النبي عليه الصلاة والسلام في حديث موجز قصير جامع مانع ، حينما رأى الهلال . . .

حَدَّثَنَا قَتَادَةُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلالَ قَالَ : « **هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ** » **ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا** » . [أخرجه أبو داود] .

إذا وقفت أمام بائع أزهار وتأملت اسم الجميل ، من خلال جمال الزهرة ، وتأملت هذه الرائحة الفواحة العَطِرة ، ورأيت في الزهرة تناسق الألوان وأنت تعلم علم اليقين أن هذا الزهر لا يؤكل ، وإنما خُلِقَ خصيصىٰ لإمتاع عينك وأنفك ، إذاً هذا مِن إكرام الله عز وجل لك ، وإذا عرفته شكرته وعظمته .

لو قرأت كتاباً عن العسل ، وتملَّكك العجب العُجاب من هذه النحلة : تلك الحشرة الاجتماعية ، ذات النظام البديع ، في مجتمعها الذي هو أرقى من المجتمعات البشرية ـ وهذا كلام علمي ـ فأي مجتمع بشري ، يعرف فيه كلُّ مواطِنٍ ما له وما عليه ، من حقوق وواجبات ؟ إن النظام لدى مجتمع النحل دقيق جداً ، إذ لا ترقى إليه التنظيمات البشرية ، إذ كل شيء في وقته وموقعه ومكانه وزمانه ، فأرقى المجتمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى النظام الاجتماعي عند النحل والنمل .

أجل ، إذا قرأت كتاباً عن النحل ، وشعرت أن الخالق جلَّ وعلا أبدع في خلق النحل ، فأدركك الخشوع وربما انهمرت عينك بالدموع ، فأنت حققت الهدف الأكبر من خلق النحل ولو لم يكن دخلك يسمح أن تشتري شيئاً من العسل ، أما الذي أكل العسل حتى امتلأت حجراته وخلاياه منه ولم يفكر في هذه المادة التي أكرَمَ الله بها الإنسان فقد عطّلَ الهدف الأكبر واستفاد من الهدف الأصغر .

إذاً اتفقنا على أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى . . وما دمنا نطوف حول اسم اللطيف ، فهل ترى في الكون ما يدل على أنه لطيف ؟ . . نعم فالهواء يحيط بنا من كل جانب ، نستنشقه ، ولو حركناه لشعرنا بوجوده ، يحمل طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسون طناً ، منها مئة وخمسون : هيكل الطائرة ، ومئة وخمسون : الوقود ، وخمسون : الركاب مع الحاجات ؛ فالهواء يحمل ثلاثمئة وخمسين طناً فهو إذاً شيء عجيب جداً .

وحينما تدخل المركبةُ الفضائية في الغلاف الجوي تصبح كتلةً من اللهب لاحتكاكها به ، ومع ذلك إذا كنت على سطح الأرض فالهواء لا يُرى وليس له صوت إذا كان ساكناً ، فهو موجود وكأنه غير موجود فلا يحجب الرؤية ، وترى أخاك من خلاله ، وتسمع صوته ، إذاً الهواء لطيف ، وربنا عز وجل يقول :

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ [الشورى : ١٩] .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

اسم اللطيف له معانٍ كثيرة ، أحد هذه المعاني أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصغره يسمى لطيفاً ، مثلاً : ائتِ بين يديك بجهاز

راديو ، أَدِرْ مؤشره إلى إذاعة من الإذاعات ، تستمع إلى نشرة الأخبار ، فالكلام أين هو ؟ إنه موجود في الجو المحيط ، وبهذا الجهاز اللاقط التقطها ، فهل تستطيع أن ترى بعينك موجات الإذاعة ؟ لا تراها بعينك ، ولا تسمعها دون جهاز استقبال ؟ وهل لها وزن ؟ لا ، وهل لها رائحة ؟ لا ، إذاً موجات الإرسال لطيفة ، وموجودة ، والدليل استماعك لها من الجهاز الذي بين يديك ، فإذا أزحت عنك الجهاز فإنك لا ترى شيئاً ، ولا تسمع شيئاً ولا تشم شيئاً ، إذاً هذا الإرسال موجود ولكن بلطف ، وسأُقرّب الأمثلة لأفهام القراء الكرام :

الإرسال موجود ولكن بلطف ، والهواء موجود ولكن بلطف ، أما الهواء فإنه إذا تحرّك بسرعة تزيد على ثمانمئة كيلو متر في الساعة ، فلن يُبقي هذا الإعصار شيئاً على سطح الأرض ، وقد قرأت أن في أمريكا إنساناً عنده دار فخمة جداً ، وله سيارة من الوزن الثقيل وأصاب هذه المدينة إعصار ، فعثر على محرك سيارته بعد خمسة كيلو مترات من داره ، ولم يجد أي أثر لا للدار ولا للمركبة ، وهذا نتيجة حركة الهواء ! أما إذا سكن فلطيف جداً ، إذ لا تراه بعينك ، وليس له رائحة ، ولا صوت ولا حِس .

إذاً معنى اللطيف بالمعنى اللغوي : الشيء الصغير الذي لا يُحس به لِصِغره ، وهذا الشيء الصغير الذي لا يُحس به لِصِغره يُسمى لطيفاً ، وهذا الماء ، لو أخذت منه نقطة من الكأس ووضعتها تحت المجهر ، وكبَّرْت النقطة مئات المرات لرأيت فيها عشرات ، بل مئات ، بل ألوف الكائنات الحية ، في حين يبدو أمامك ماء صافياً عذباً فراتاً رائقاً . لكن الكائنات التي فيه غير ضارة ، وهي كائنات

لطيفة ، وما معنى لطيفة ؟ أي : هي من الصِّغر بحيث لا تراها من لطفها ، فهذا معنىً من معاني لطيف .

ثم إن الهواء لطيف أي : موجات الإرسال لطيفة ، بلا رائحة ولا صوت ولا حس وغير مرئية ، وهذا معنى آخر أيضاً . والكائنات الحية في هذا الكأس من الماء لطيفة ، وإذا قلنا : الله لطيف بعباده ، فالله عز وجل معك يسمع صوتك ، ويعلم ما في قلبك ، وما في رأسك من أفكار وطموحات ، وصراعات ، وآراء ، ومعتقدات ، وتصورات وتخيلات ، ويعلم ما في قلبك من هموم ومتاعب وآلام وضغوط من خوف ومن قلق ، ومع ذلك وجوده معك محببٌ ، تصوّر لو أن إنساناً لازَمَ إنساناً . جلس فجلس معه ، مشى فمشى معه ، دخل إلى بيته فدخل معه ، أكل فأكل معه ، فإن بقي يلازمه خمسة أو ستة أيام يخرج من جلده ، ويقول له صائحاً : إليك عني ، انصرف بعيداً ، وقد رأينا أنه لم يتكلم بأية كلمة ، ولم ينتقد ، ولم يعترض ، ولم يطلب منك طلباً ما ؛ إن ذلك الشخص بملازمته لك عبء عليك ، لكنك تعلم أن الله معك دائماً ، ولكن لا تُحِس بوجوده ، فوجوده محبب إليك ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] .

تعني كلمة لطيف ، أن الله عز وجل من اللطف بحيث لا تراه ولا تسمعه ؛ ولكن تراه بعقلك ، وهذا أحد المعاني لكلمة لطيف ، لهذا جاء في الحديث الصحيح :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ ، قَالَ : مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ [رواه مسلم] .

« اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأني أراك أبداً » .

إذاً : المعنى الأول أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لأنه بعيد ، أو لصِغره يسمى لطيفاً ، ولما كان الله سبحانه وتعالى منزّهاً عن الجسمية ليس بجسم ولا صورة ، ولا متبعض ولا متجزّىءٍ ، ولا متحيّز ، وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك ، لا يُسأل عنه ؛ متى كان ؟ لأنه خالق الزمان منزّه عن الجسمية والتحيز في كل مكان مع كل شيء بعلمه ، محيط بكل شيء علماً ، وعلمه مع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وإلى جانب كل شيء ، وما معنى الحيّز ؟ مثلاً هذا الكأس يشغل حيزاً في الغرفة ، وله وزن وارتفاع وقُطر وقد حجز على الطاولة مكاناً ، وفي الفراغ مكاناً وله وزن ؛ هذا هو الحيز ، فربنا عز وجل ليس بمتحيز ، أي لا يشغل حيزاً ، وأحياناً يكون الإنسان مُنحرفاً ، مُسرفاً ، يأتي كل يوم كاليوم السابق صحة وطعاماً وشراباً ومكانة اجتماعية ، وقوة وطغياناً وسيطرة ، ولكن فجأةً يأتيه مرضٌ عُضال لا يرى ، أو قد يشعر بآلام شديدة في صدره أو في يده اليسرى مثلاً .

إذاً إذا قلت : الله لطيف يعني أن الله عز وجل لا يشغل حيّزاً ،

وليس بجسم ولا صورة ، ولا متبعّض ولا متجزّىء ولا متحيّز ، إلى آخر هذا التعريف .

ولما كان الله منزّهاً عن الجسميّة لم يحس به فأطلقوا اسم الملزوم له على اللازم ، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف بمعنى أنه غير محسوس ، وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار ، فهذا الاسم من صفات التنزيه أي سبحانه أن يكون له جسم ، أو أن يكون متحيّزاً ، سبحانه أن يُحيط به زمان .

إذاً : اسم اللطيف من أسماء التنزيه ، فهو معك لكن بلا شعور ، لا تُدرِكُه الأبصار لأنه لطيف وهو يُدرِك الأبصار .

وأحياناً تعمل عملاً لا يُرضي الله فتُحاسب عليه بعد قليل حساباً عسيراً ؛ إذاً رآك ، وأحياناً تفكر في عمل لا يُرضي الله ، تجد الله عز وجل قد عاقبك ، لأنه عَلِمَ ما في نفسك ، إنه لطيف لا تُحِس بوجوده ، فوجوده ليسَ ثقيلاً عليك ، لكنه موجود ، يَحولُ بين المرء وقلبه ، ويعلم السر وأخفى ، ومعنى : (وأخفى) ، أي : وعَلِمَ ما لم يكن لو كان وكيف كان يكون إنه يعلم لمَ وكيف ، وماذا ، وعلامَ ، وهذه أحوالك أيها الإنسان يعلمها الله دون أن تراه ، فالله لطيف ، ولطيف اسم تنزيه ، وفي الوقت نفسه لطيف لكنه موجود معك ، فخواطرك ومشاعرك وأحاسيسك وطموحاتك وصراعاتك وآلامك ، وضيق نفسك كله معروف عنده لكن دون أن تشعر به .

إن المؤمن ما دام يَعبُد الله وكأنَّ الله يراه فإنه يكون متأدباً حتى ولو كان في خلوته ، وهو لا يرى الله بعينه لكنه يراه بعقله ، فالمؤمنون وهم في فرشهم يتأدبون مع الله عز وجل ، ويحب أن تكون حركته

كلها أدباً ، حتى إذا دخل الخلاء له دعاؤه ، وحتى إذا دخل الحمام له موقف فيه أدب ؛ لأن الله يراقبه .

فكلما ارتقى إيمانك تشعُر أنَّ الله معك . . « **يا موسى! أتحب أن أكون جليسك ، قال : وكيف هذا يا رب ؟ قال : أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني** » .

وبعد ، فكم من مصلٍّ يقول : سَمِعَ الله لمن حمده ، فهل عرفت معناها ، يعني يا عبدي أنا أسمعك ، فاحمدني ؛ فإن قلت : سمع الله لمن حمده ، فأنا أسمعك وأصغي إليك ، . . أين هو ؟ فلذلك إذا صليت فاعلم أنك بين يدي الله عز وجل ، والسيدة عائشة تقول : كان النبي يحدثنا ونحدثه ، يجالسنا ونجالسه ، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ، وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم .

ترى الإنسان يعتني بمظهره عناية مطلقة إذا دعيَ لمقابلة مسؤول مثلاً ، وهو إنسان مثله ، يموت ، ويجوع ، ويعطش ، ويتعب ، ويغضب ، فكيف إذا وقف بين يدي الواحد الديّان ؟ فليعلم أن الله لطيف ، موجود ولكن لطيف ، وجوده لطيف وليس ثقيلاً ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : اللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامِضِها . ويُقال فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته ، ومهتدياً إلى ما يشكل على غيره ، وعلى هذا التفسير يكون الله لطيفاً بمعنى أنه عليم .

وقد تفهم الأمر بشكل ظاهري لا بخباياه ، ولا بخلفياته ، ولا بتحليلاته العميقة ، ولا بالدوافع الخفية لهذا الأمر ، فالإنسان

كلما ارتقى عِلمُه فهم البواطن وفهم السرائر ، ومابين السطور ، بل يفهم الدافع الحقيقي .

أضرب مثلاً بأشخاصٍ غير مستقيمين : في أيام الشتاء جاءت صديقة زوجته ، وهو جالس في غرفة الجلوس والمدفأة مشتعلة ، فقال لها ولزوجته : تعالين إلى هنا ، أدفأ لَكُنَّ ، وهل حقاً أدفأ لَهُنَّ ؟ أم له هدف أبعد من ذلك ، أن يطّلِعَ على هذه المرأة صديقة زوجته ، من يعلم هذا الشيء ؟ الله عز وجل يعلم السر وأخفى .

وما معنى لطيف يعني يعرف دوافعك الحقيقية ، وهذه المواقف الملتوية والسِّرّ ، والحِكمَة ، وهو الذي يعلم دقائق الأمور ، وبواطِنها وخلفيات الأشياء ، وحقيقة كل أمرٍ ، ويعلم ما خَفِيَ على معظم الناس .

فالذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها ، ومؤدياتها ومضاعفاتِها وما ينجم عنها وما أساسها ، وما سِرُّها ، وما أسبابها الحقيقية هو اللطيف هذا معنى ثان ، اسم اللطيف يعني الذي يعلم كل شيء مهما دق وخفي .

المعنى الثالث : اللطيف هو البَرُّ بِعِبَادِه الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيِّيء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، فاليوم حَرٌّ شديد مثلاً ، فربنا عز وجل يهيِّيء لأهل هذه البلدة إنضاج فاكهتهم ، وهم لا يعرفون ، وبعد شهر ترى هذه الفاكهة معروضة في الأسواق بوضع جيد وجميل وطعم طيب ولذيذ ، فمن أنضج هذه الفاكهة طَوَال هذه المدة ؟ الله عز وجل ، إنه لطيف بعباده ، فساعة حر ، وساعة برد ، وساعة ماء غزير ، وساعة ماء قليل ، وأنت لا تدري فاللطيف

بعباده هو البَرُّ بهم ، والذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيِّىء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، ومن قول الله عز وجل : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ومنه يأتي المعنى الثالث أي : البر بعباده .

لكن المعنى الرابع وهو من أروع المعاني التي قالها الإمام الغزالي ، أن اسم اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور ، وينقل عبده من حال إلى حال بلطف عجيب .

فهذا الطفل الصغير يجب أن يُغيّر أسنانه ، لأنه لو نبتت له أسنان نهائية ثابتة وفمه صغير جداً ، فمنظره مُنَفِّر ، فأسنانه كبيرة ، والفم صغير ، ولو نبتت له الأسنان وهو يلتقم ثدي أمه فيمكن أن يؤذيها أذى مؤلماً لا تحتمله ، فهذا الطفل يكون في السنة الأولى بدون أسنان ثم تنبت له أسنان لبنية ، ومن بعد ، ربنا عز وجل يُبدّل لهذا الطفل أسنانه ، فالله لطيف ، ولا يوجد طبيب في الأرض يستطيع أن ينزع سناً لطفل من دون أن يبكي ، حتى إن حقنة المخدر مؤلمة جداً ، فيبكي منها ، ولكن ربنا عز وجل يذيب هذا السن شيئاً فشيئاً ثم يأكله الطفل مع اللقمة ولا يشعر بشيء ، فمعنى لطيف كما قال الإمام الغزالي : « **هو من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف** » .

وأحياناً قد يُكرِهُك الله على شيء ما ، ليس فجأةً ، بل بالتدريج ، خلال خمس سنوات مثلاً ، وتأتيك منه بعض المتاعب ، أزاح منك بالمئة خمساً من محبته ، وبعد أسبوعين تأتي متاعب جديدة فيزاح بالمئة عشر ، وبعد أسبوعين متاعب جديدة بالمئة خمس عشرة ، وبعد

شهرين أو ثلاثة تقول : زهقت روحي ، ولم أعد أطيق ذلك ، فهناك شيء غير صحيح قد تعلقت به ، فربنا عز وجل نزعه منك شيئاً فشيئاً بلطف .

على هذا النحو تم تحريم الخمرة ؛ إذ كان العرب متعلقين بها تعلقاً شديداً ، فلو أمرهم أن يتركوا الخمرة بآية واحدة فربما ارتدَّ بعضهم ، أو نصفهم عن الإسلام ، لكن الله لطيف ، قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٧] .

فقط . . ألطف إشارة إلى أن الخمر هي رزق ، ولكنه ليس حسناً ، فقال : تتخذون منه سَكَراً ، مادة مُسكِرة ، ورِزقاً حسناً : تظنون أنه حسن وهو مسكر فليس بحَسَن ، هذه أول إشارة ، وبعد ذلك قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ [النساء : ٤٣] .

يعني : إن شربْتَ فلا عليك ، ولكن دعه عند الصلاة ، وبعد ذلك قال :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

المنافع للذين يتجرون بها ويعيشون على دخلها ، ثم يقول الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] .

فهو سبحانه لطيف حرّمَهَا بالتدريج ، وكذلك قد يذهب شاب إلى الجامع فيسمع درساً ووعظاً ، فيقول : والله إنه درس جميل ، وأريد أن أداوم عليه ، ويكون على عشرين أو ثلاثين معصية ، وربنا للطفه لا يذكره بها كلها ، لكن الله اللطيف يذكره بواحدة منها بين الحين والحين ، هذه حرام وهذه حرام ، فلا حول ولا قوة إلا باللهِ ، لقد كنت جاهلاً ، فلعله يتركها ؟ ؟ ولو أعطيناه القائمة بالمعاصي كلها لترك الدين كله ، ولكن اللطيف تدرج به واحدة واحدة ، وبعد ستة أو ثمانية أشهر ، ترك هذه وهذه وهذه ، وربنا يُسخِّر لَهُ شخصاً يُذكِّرُهُ بالأشياء بلطف ، فهذه حرام يا أخي وهذه لا يجوز أن تأتيها ، وهذا اللقاء لا يجوز ، وهذا البيع فيه شبهة وهذه البضاعة لا يحل الاتجار بها فهي محرمة شرعاً ، أتتاجر بطاولات نرد ؛ فإليك حديث النبي صلى الله عليك وسلم فيها :

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ** » . [رواه مسلم] .

وبالتدريج ربنا يعالج الأمور ، فربنا لطيف في العلاج ، والإنسان أحياناً يغلب رجاؤه على خوفه ، وربنا لطيف يخوفه ، وأحياناً يغلب خوفه على رجائه وربنا لطيف يطمئنه .

العلم الدقيق مع التدريج في العمل ، هذا هو الاسم الجامع المانع لاسم اللطيف ، ويستحقه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف ، حين يجتمع له هذا العلم . وإليك مثلاً : إن الوالد إذا ارتكب ابنه مخالفة للشرع أو للأخلاق ، فيمكن أن يعاقبه بعنفٍ وقسوة ، ولكن الأجدى أن

يتابعه ، ويراقبه ، ويشجعه ، ويكافئه ، ويعاقبه ، ويعرض عنه ، ويراوح في كل ذلك ، وبعد شهرين أو ثلاثة يستقيم طواعية وقناعة ، فأنت نقلته من حال التلبُّس بهذه المخالفة إلى حال التوبة منها بطريقة لطيفة دون أن تُحطِّمَهُ ، أو تجرحه ، أو تَسحَقَهُ ، أو ترضَّه رضاً ودون ألم وعنف ، والمربي المؤمن لطيف ، ينقل من يعالجه ، ويربيه من درجة إلى درجة بالرفق واللطف .

دخل رجل إلى المسجد فأحدث جلبة وضجيجاً يريد أن يدرك الركعة ، فلما انتهى قال عليه الصلاة والسلام لهذا الذي أحدث جلبة وضجيجاً : « **زادك الله حِرصاً ولا تعد!** » لقد ترفق به ، ولذلك « **إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف** »[1] إذاً علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف .

ومن لطف الله بعباده ، أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلّفهم دون الطاقة خمس صلوات ، كل صلاة ثلث ساعة ، عشرون دقيقة بخمس صلوات أي : مئة دقيقة ، ومجموعها ساعة وثلثان من أربع وعشرين ساعة ، ولو كلّفَكَ خمسين صلاة لما استطعت! ثلاثون يوماً تصوم في السنة فلو كلفك ستة أشهر صياماً متتابعة لما أطقت .

الله لطيف بأوامره ، لطيف بخلقه ، فلو كانت هذه التفاحة تحتاج إلى أدوات لتأكلها لَشَق الأمر على الناس جميعاً ، فأنت بسكين تأكلها ، ولو كانت البيضة تحتاج إلى مفتاح ولم تجد المفتاح لأتعبت الحياة أهلها ، لكن على طرف الصحن تكسرها .

---

(١) البخاري في الأدب المفرد وأبو داود من حديث عبد الله بن المغفل رضي الله عنه ، وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ، وأحمد والبيهقي من حديث علي .

عنقود العنب تريد أن تسحبه نحو الأسفل فينسحق بيديك ، ولكن بالعكس له مفصل ، الله لطيف ، إذا عملت حركة معاكسة باتجاه العنقود يصير بيدك ، تُمسك الدراقة فتصبح بحركة في يدك ، فربنا عز وجل لطيف ، الفاكهة لها طعم ، ولها شكل ، ولها قِوام مقبول مع الأسنان ، ولو كانت التفاحة بقِوام الصخر تماماً فما الطريقة إلى أكلها ؟ إننا نحتاج إلى مطحنة حجر كي نصنع عصير تفاح ، إذ لا نقدر على أكلها ، فالتفاحة قِوامُها هشّ ممكن أن تأكلها بسهولة .

الذي دبّرَ الأمور هو الحكيم ، والذي أوجدها هو الجواد ، والذي رتبها هو المصوّر ، والذي وضع كل شيء في موضعه هو العادل ، أما الذي لم يترك فيها دقائق إلا وعرفها فهو اللطيف ، واللطيف هو الذي أعطى العباد فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ، واللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل يسير ، واللطيف من وفق للعمل في الابتداء وختمه بالقبول في الانتهاء ، واللطيف هو الذي وليَ فستر ، وأعطى فأغنى ، وأنعم فأجزل ، وعلم فأجمل .

أما حظ العبد من هذا الاسم فهو الرِّفقُ بعباد الله ، واللطف بهم في الدعوة إلى الله .

﴿ اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٣ـ٤٦] .

دخل أحدهم على الرشيد وقال له : سأعِظُكَ بِغِلْظَة ، قال له : ولِمَ الغِلْظَة يا أخي ؟ لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر

مني ، أرسل موسى وهارون إلى فرعون فقال لهما : فقولا له قولاً ليناً .

فإذا عرفت شيئاً سيئاً فاستره ، وكن لطيفاً ، وإذا تحركت نحو فعل شيء فكن بهذه الحركة لطيفاً ، وإذا أردت إحداث شيء فاجعل لهذا الشيء برنامجاً لا يُثقل على صاحبه ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان في قمة النشوة في صلاته مع ربه ، ووراءه أصحابه ، فسمع بكاء طفل صغير ، فعلى غير عادته قرأ آية قصيرة رحمة بهذا الطفل ، واختصر الصلاة وسلّم وفي الصحيحين والمسند من حديث أنس رضي الله عنه : إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه ببكائه . . . فإذا دعوت إلى الله عز وجل فكُنْ لطيفاً ولیناً ورحيماً .

وقال بعض المحققين : العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفقٍ ناصحٍ لا بعنفِ معسرٍ ، وكيف وهو مستبصر بسر الله تعالى .

وخلاصة بحثنا أنه إذا كان الله لطيفاً في علمه ، لطيفاً في وجوده ، لطيفاً في تصرفاته فاشتق منه هذا اللطف .

* * *